السادات في أخطر رحلة للسلام

بقلم : أمينة السعيد

وقفت على ارض مطار بن جوريون وانا احس بدوار شديد : فقرار السادات بزيارة اسرائيل : هذا القرار الذى شهد العالم باجمعه انه الاول من نوعه ولم يسجل له مثيل على صفحات التاريخ من بدايته الى يومنا هذا . كان اسرع فى مفعوله من قنبلة ذرية القاها على استيعابه : مما اصابنا بلون من الذهول شل قدرتنا على التحكم فى احاسيسنا ومشاعرنا .

وافضل وصف لهذا الشعور عاوده على لسان كبير المحللين فى اسرائيل عندما سئل عن رايه فى مبادرة السادات ، فقال : انه حدث من فعل الله وليس من عمل الانسان وتضاعف ذهولنا مما فوجئنا به فى مطار بن جوريون ...

لقد كنا بطبيعة الحال نتوقع استقبالا كريما هناك ، ولكننا لم نتوقع مطلقا ان تصل الفرحة بنا الى هذا الحد من الروعة التلقائية التى تفجرت بها مشاعر الشعب الاسرائيلى على مختلف طبقاته وتزعاته وفئاته، وبدت هذه المشاعر واضحة فى خلوها تماما من الصنعة والافتعال .

ففى جانب من المطار الفسيح اقيم مدرج ضخم لصحفيى العالم الذين اتوا من جميع انحاء العالم لكى يسجلوا الحدث العظيم ، وقد بلغ عددهم نحو اربعة آلاف بين مندوبين ومصورين ومعلقين سياسيين واذاعيين وتليفزيونيين ... وكان واضحا من تجاوبهم الحارة انهم يعيشون سعادة اللحظة التاريخية مثلما يعيشها الاسرائيليون واكثر ..

وفى الجانب الاخر من المطار اقيمت مدرجات وممرات اعتلاها بعشرات الالاف من يهود اسرائيل ومسلميها ومسيحيها .. ولقد حضر هؤلاء الناس فى غالبيتهم الساحقة سيرا على الاقدام.. مشوا مع اطفالهم ونسائهم نحو خمسين ميلا لكى يروا بانفسهم على الطبيعة — لا من خلال التليفزيون — زعيم السلام وهو يخاطر بحياته .. بل واكثر من حياته .. فى سبيل مواجهة اعدائه فى عرينهم ، ومكاشفتهم بالحقيقة ، ووضعهم امام الفرصة الذهبية لحقن الدماء ، واقرار السلام العادل الدائم

وحين ظهر الرئيس على رأس سلم الطائرة ومن خلفه رئيس دولة اسرائيل الذى اصر على الصعود الى الطائرة لاستقبال البطل المصرى ، اطلت زعام مشاهير الجماهير التى قفست اكثر من ثلاثين عاما فى قتال ورعب واخطار .. وخيل الينا كان الاجواء من حولنا ترتج بالهتافات والزغاريد التى لم يسبق للاسرائيليين ان هتفوا او زغردوا مثلها .. وبلغت بهم الفرحة ان خطوا لاول مرة تقاليدهم الدينية ، فاخرجوا صحنهم يوم السبت المقدس ، وغيروا شعارهم الدينى الذى ينص على التحية بعبارة سلام شالوم اى سبت السلام ، فلاذا بهم يقولون بعضهم لبعض : سادات شالوم .. اى سادات السلام !

وبلغ بى الانفعال اقصاه حين رايت رجال الشرطة الاسرائيليين المعروفين بغاية الصلافة والصرامة يطوفون حلبة الاستقبال متشابكى الايدى والأكتاف ، ويتطلعون الى السادات والدموع تنهمر من عيونهم ، فلقد كان والله مشهدا مؤثرا الى ابعد حد ..

وعندما وصلنا الى الفندق وجدنا جميع الطرق المؤدية اليه مسدودة تماما بالاف من الشبان والشابات والاطفال .. الجميع يغنون ويرقصون ويزغردون ويهتفون بحياة السادات رسول السلام .. وظلوا على حالهم الحال الى مابعد منتصف الليل ، ثم اخذوا بعد ذلك يتفرقون عائدين الى بيوتهم كى يستعدوا الى استقبال اليوم التالى من فجره الى منتصف ليله امام برامج التليفزيون التى سجلت دقيقة بدقيقة كل حركة للرئيس السادات .. والطريف ان الاسرائيليين جميعا الكبار منهم والاطفال منحوا انفسهم فى يوم الاحد عطلة بدون اذن فانقطعوا عن اعمالهم ومصالحهم ومدارسهم كى لا تفوتهم لحظة من تحركات واقوال الرئيس المصرى .. ولزم الجميع بيوتهم حتى خيل الينا ونحن فى طريقنا الى اماكن اللقاءات المختلفة ان المدينة خلت تماما من السكان ، ولم يظهر فى شوارعها انسان واحد .. فيما عدا مظاهرات التحية الحارة التى قوبلنا بها من عرب فلسطين ونحن نزور المقدسات بالقدس القديمة .

ولا اظن ان واحدا من رجال اسرائيل المعروفين او نصف المعروفين

لم يكن فى استقبال الرئيس .. حتى وزير الدفاع الذى كان قد اصيب فى حادث قبلها بوقت قصير ، ترك المستشفى ، واقبل لتحية السادات وهو يتوكأ على عكاز .. كذلك فعلت مسز جولدا مائير التى كانت خارج البلاد للعلاج ، فحين علمت بزيارة الرئيس السادات ، قطعت علاجها فورا وعادت الى اسرائيل لتقوم بواجب التحية والترحيب ..

ومن طريف ما يذكر فى التعبير عن فرحة الاسرائيليين باللحظة التاريخية ان اسرعت ادارة البريد باخراج طوابع تذكارية جديدة ، كما اخرجت المطابع الاهلية ملايين تذكارية مطبوعا عليها صورة السادات ... واعلنت نوافذ البيوت والمتاجر والمؤسسات بالاعلام المصرية صغيرها وكبيرها .. ورايتا الاطفال يحملونها ويلوحون بها وهم يتجمعون امام بيوتهم ويامرون لعبة جديدة اخترعوها وسموها لعبة السلام !

وتستطيع ان تؤكد ان مشاعر الشعب الاسرائيلى بجميع طوائفه تختلف تماما عن سياسة حكومته ، فلقد تعاب طويلا بالحروب والخصومات وموت الابرياء والاحباب واصبح يتوق من صميم قلبه الى المودة والصفاء والسلام ..

ولقد اعربت الصحف عن هذا الشعور العام حين خرجت صباح السبت قبل وصول السادات بساعات ، بتحذيرات واضحة المعنى لحكومتها وطالبت باسم الشعب الا يتساق الحكام مع دواعى الصلف والعنت مما يضيع فرصة العمر هباء .. واجمعت آراء الصحف على الاهتمام البالغ بمطالب السادات كى يعيش الشرق الاوسط حياة جديدة حالمة بعد مافاساه من عذاب خلال السنوات الثلاثين الاخيرة ..

ولعل اوضح تعبير عن اثر زيارة الرئيس المصرى ماورد على لسان مذيع التليفزيون الاسرائيلى ، حين قال فى استهلال نشرته الاخبارية المسائية : لقد استطاع الرئيس السادات ان يغزو اسرائيل كلها بالحب والثقة التى ملأ بها قلوب الناس ..

وعندما اجاب مناحم بيجين على خطاب السادات بشئ من التمسك والتشدد ، ثار غضب الاسرائيليين الجالسين بالكنيست ، فرأيناهم يضربون بدأ بيد ، او يخلون وجوههم فى ايديهم علامة الاستنكار ، او يهزون رؤوسهم فى ضيق واضح . ولما انهى رئيس وزرائهم من كلامه، ونزل الى القاعة عائدا الى مكانه بين اعضاء المجلس ، لم يتقدم احد لتهنئته ، فرايناه يقف بجانب اعضاء المجلس ، ويمد لهم يد المصافحة قبل ان يبادروه بها لكى يبدو امام المذيعات التليفزيونية وكأنه نال التأييد ..

وقد علمنا انه بعد انتهاء الجلسة المشتركة ، اجتمع اعضاء الكنيست معا ، وتناقشوا بهدوء بصراحة وشجاعة ، وعابوا عليه التشدد الذى يمثل مدرسة سياسية قديمة لم يعد لها مكان فى حياتهم الجديدة ، وحذروه من لعبة هذا الاسلوب .

وكان شومان بيريز زعيم كتلة التكتلة السياسية الجديدة من حزب العمل قد تحدث بالكنيست بعد بيجين ، وعبر باسلوب مهذب بناء عن ايمان كتلته بحق العرب فى اراضيهم ، وضرورة الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحل مشكلته .. وكان خطابه يتسم بالتسامح والواقعية فى مواجهة الموقف ، مما اكسب بيريز مزيدا من ثقة الرأى العام وتاييده .

وحتى اسحق رابين فقد القى بدوره فى احدى الجلسات البرلمانية كلمة جيدة ذكر فيها انه اشترك فى حربى ٦٧ ، ٧٣ ، وانه لا يتمنى ان تتكرر هذه التجربة فى حياته ، واعترف انه يؤمن بأن المشكلة الفلسطينية يجب ان تدرس وتحل، وبدون ذلك لن يكون هناك امل فى سلام دائم ..

وبالمثل سمعنا من مائير تللى رئيس الكتلة البرلمانية لحزب مابام ، وهو الجناح اليسارى الاتحاد والعمل ، فلقد اعرب هو الاخر عن ايمان كتلته بضرورة اقامة وطن للفلسطينيين ، على ان يكون متصلا بطريق ما بالاردن فيما للمستقبل،

وفى رايه ان ذلك ليس بالمطلب العسير لان الفلسطينيين يعيشون بالاردن كمواطنين كاملين ، ولهم ممثلون فى الوزارة الحالية ، كما كان لهم ممثلون فى الوزارات السابقة ..

ومن الشخصيات الطريفة التى قابلناها هناك آبى ناتان الذى يسمى نفسه رسول السلام ، وقد حضر مرارا الى مصر بطيارة خاصة ولكنه منع من الدخول واعيد على اعقابه، تلك فعلت به البلاد العربية المختلفة التى زارها بنفس الطريقة ليبشر بالسلام ..

وناتان رجل فى منتصف العمر متحمس الى ابعد حدود الحماسة للسلام بين العرب واليهود ، وقد بدا حياته طيارا بالسلاح الجوى الاسرائيلى ولكن فكرة السلام اختمرت فى ذهنه فاستقال نهائيا من الحروب والقتال .. واكتشح مطعما بتل ابيب ، واذا بالطعم يحرز نجاحا منقطع النظير الى لصاحبه بثروة طائلة .. عندئذ باع آبى ناتان مطعمه ، وكرس تعلقه الكبير لقضية السلام التى يعتنقها ، وعندما تعجز عن الوصول الى الاطراف المختلفة ، اشترى باخرة صغيرة ، وارفقها خارج المياه الاقليمية ، واخذ يذيع منها دعوته ، ويجتذب الاستماع اليها عن طريق اذاعة الموسيقى الجميلة المحببة لدى الناس ... والنتيجة ان اقلس ناتان ، وضاعت ثروته كلها ، قبل ان يتمكن من تحقيق السلام الذى يرجوه ..

وكان من دواعى التوفيق ان اتيح لنا الحوار مع جماعات مختلفة من اهل اسرائيل ، العرب منهم واليهود .. ففى مستعمرة الصخور جلست قبل صلاة الفجر وبعدها مع جمع غفير من النساء العربيات ووجدت فرحتهن بالغة بمبادرة السادات .. وكن صريحات فى التعبير عن وجهة نظرهن ، وقلن ان الفلسطينيين استقلوا اسوأ استقلال ، فلاهم تركوا لاهاليهم داخل اسرائيل كى يكيفوا انفسهم بالوضع ويعيشوا حياة طبيعية مع الاخرين .. ولاهم خدموا فى الخارج كلاجئين .. وقالت زعيمة الجالسات معنا فى المسجد وهى سيدة على قدر كبير من الثقافة والفهم السياسى ..

لقد تحولنا نحن الفلسطينيين الى اداة للتسول، يجمعون بها المال من هنا وهناك ، ولقد آن الاوان ان نستعيد كرامتنا ، فليوفق الله السادات فى مسعاه الى اقرار سلام دائم قائم على العدل ..

ومما ادهشنى حقيقة انى تبينت من خلال الحوارات المتعددة التى جرت بينى وبين جماعات مختلفة ان يهود اسرائيل يعرفون حقيقة حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، ويعترفون بان نصر المصريين فيها اعاد التوازن ، وفتح الطريق الى تحقيق امل السلام.. فالانتصارات التى تكررت لهم اصابتهم بلون من الغرور والصلف ، لكن انتصار العرب عليهم فى ٧٣ ردعهم بقسوة امام الواقع الكفيف الذى لم يسبق لهم ان راوه من قبل ..

واذكر على سبيل التمثيل مثلا لذلك بسيدة تشغل منصبا اعلاميا مرموقا فى اسرائيل، وقد اشتركت معنا فى جلسة حوار بهو الفندق، وقالت لى : مادام السادات رجل سلام اصيلا ، فلماذا حاربنا فى اكتوبر ٧٣ ؟!

وقبل ان اجيب عن هذا السؤال ، هتف الاسرائيليون الجالسون معنا فى نفس واحد يقولون لها : لولا حرب اكتوبر ماسنحت لنا فرصة السلام التى نعيشها اليوم !

ومن خلاصة احاديثنا مع الاسرائيليين نستطيع ان نؤكد انهم جميعا لا يخافون الانسحاب من الاراضى التى استولوا عليها عام ١٩٦٧ ، انما الذى يخافونه بشدة هو قيام دولة مستقلة للفلسطينيين، فقيام هذه الدولة على حدودهم بشكل فى نظرهم خطرا دائما على سلامتهم ، ولذلك فهم لا يعارضون فى اقامة وطن فلسطينى بشرط ان يكون متصلا بالاردن على نحو ما ..

ولما سالتهم عما يخافونه من قيام الدولة المستقلة ، اعترفوا بصراحة بان المنظمات الفلسطينية — او العصابات كما يسمونها — كفيلة بتهديد امنهم وحياتهم .. عندئذ رايت ان اذكرهم بأن اسرائيل قامت اساسا على عصابات الشرقين من الارغام ما لم تقترف المنظمات الفدائية بعضه ، ولكن بمجرد قيام دولة اسرائيل ، واستقرار اليهود فيها ذابت هذه العصابات من تلقاء نفسها ، وتحولت الى شعب يعمل بجهد وكفاءة فى بناء حضارته .. وسيكون الامر بالمثل فى قضية المنظمات الفدائية ، فعندما يجد الفلسطينيون الوطن ، وترد اليهم حقوقهم ، سيحدث لهم مثل ما حدث فى اسرائيل ، فتذوب التنظيمات ، وتتحول الى شعب جاد بناء ..

والحقيقة التى لا يمكن انكارها فى ختام هذا الحديث ، ان الرئيس السادات قام بعمل لم ير له مثيل فى التاريخ ، ومن اجل السلام خاطر باغلى ما يملك ولا مطلب له سوى رد حقوق العرب لاصحابها وافرار السلام فى الشرق الاوسط حقنا للدماء ، وصيانة بالثروات الوطنية من ان تستنفد فى شراء ادوات التقتيل والتدمير ..

ولقد كان الرئيس فى احاديثه وخطاباته صريحا الى درجة التشدد فى توضيح اسس السلام ، مؤكدا ان لا سلام ولا امن ولا هدوء او استقرار بدون رد الاراضى التى احتلتها اسرائيل عام ١٩٦٧ ، كذلك اقامة دولة فلسطينية ، ورد حقوق الفلسطينيين لاصحابها ، ومنحهم الحق الاول والاخير فى تقرير مصيرهم ..

وقد يكون الوقت مبكرا لتصور النتائج ولكن من المؤكد انني اتفق تماما مع ما ورد بجريدة الفيجارو الفرنسية حين ذكرت ان مبادرة السادات تواجه فرنسين لا ثالث لهما : الفرض الاول ان تنجح الزيارة ، وتحقق الغرض منها فيكون ذلك نجاحا سياسيا لم يسبق له مثيل، ولسوف تترتب عليه آثار عظيمة فى حياة مصر ، فتقوى وتعالج مشاكلها ، وتقف على اقدامها فى جو من التقدم والرخاء .. والفرض الثانى : ان تفشل المبادرة ، وفى هذه الحالة تقع المسئولية على اسرائيل ، وتخسر دوليا بقدر ما يكسب السادات داخل بلاده وخارجها من الاحترام والتاييد .. ومعنى ذلك ان الفيجارو ترى ان مصر لن تخسر شيئا بالفرضين ، انما الخاسر الوحيد فى حالة الفشل هى اسرائيل ..

ولقد سئل الرئيس السادات فى المؤتمر الصحفى عن رايه فيما يقال عن عتبات بعض الدول العربية المتحفظة : فكان عف اللسان كعهده واكتفى بان اجاب : لقد تعودت مثل هذه المواقف من قبل ، وكانت الحملة بعد حرب ٧٢ ايام فك الاشتباك الاول اشد ضراوة وقسوة ، ثم ظهرت الحقيقة فانتهى كل شئ ..

كما سئلنا نحن ايضا عن راينا فى البداية التى تهاجم بها مصر من بعض الجهات العربية ، فلم نشأ نحن ايضا ان نرد الى اخوتنا العرب رغم قربهم فى الاشقاء ، وحفظنا لهم كرامتهم امام الاسرائيليين تاركين للمستقبل مهمة قطع الشك باليقين ، واظهار الحق للعالم بأجمعه ..

واعظم نجاح فى رايى اننا خرجنا من هذه الزيارة القصيرة التى لم تتجاوز الثلاثين ساعة بانقلابتين معجزتين : اولاهما دعونا لا نحارب بعد اليوم ، وثانيتهما : دعونا نحقق الامن والعدالة للجميع